قضايا قرآنية

في ضوء الدراسات اللغوية

تأليف

الدكتور عبد العال سالم مكرم

أستاذ النحو العربي

بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مؤسسة الرسالة بيروت . شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

المَدْخَل

القُرآنُ المعْجِزَة

يعجز الباحث مهما أوتي من قدرة في التعبير، وقوّة في البيان، وجزالة في القول أن يحيط بأسلوب القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة، من حيث اللفظة الموحية، والكلمة المشرقة، والتركيب المبدع، والبيان الخلّاب، ولله درّ حجة الإسلام الإمام الغزاليّ حيث ينصح القارئين في كتاب الله تعالى أن يتدبروا أسراره، ويبصروا عجائبه، فيقول في تلاوته، وما ينبغي أن تكون عليه:

«إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها، أوَما كان لك أن تركب متن لُجَّتِها لتبصر عجائبها، وتسافر إلى جزائرها، لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها، فستغنى بنيل جواهرها، أوما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعّب علم الأوّلين والآخرين، كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها.

أوما تغبط أقواماً خاضوا في غمرة أمواجها، فظفروا بالكبريت الأحمر، وغاصوا في أعماقها، فاستخرجوا الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر»[1].

وإعجاز القرآن الكريم تناوله العلماء بالدراسة والبحث، ومع ذلك فما زالت وجوه إعجازه بكراً لم تُفَضّ، فكلما ظهرت معان تجدّدت معان أخرى، وهكذا، فمعاني القرآن مع المتدبرين ولادة بعد ولادة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فما دام القرآن الكريم يتلى في ظلال التدبّر والتفكير، فإن

(١) جواهر القران ودرره/٨ ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ بتصّرف.

المعاني تتشقق، والأفكار تتولّد، والدّلالات تتتابع، والإمتاع بالقراءة والتلاوة يملأ النفس خشية، والقلب خشوعاً، والفكر نوراً، والعقل هداية.

ولهذا كان السيّوطيّ على حقّ حينما يتحدّث في «إتقانه» عن إعجاز القرآن الكريم بقوله:

«وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس، وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس... إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة.. قال تعالى: ﴿**لو أَنْزَلْنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خَشْيَةِ الله**﴾ (١). ﴿**الله نزّل أَحْسَنَ الحَديثِ كتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذّين يَخْشَوْن رَبَّهُمْ**﴾(٢).

ويسجّل السّيوطيّ في «الإتقان» أيضاً قول ابن سراقة في أن إعجاز القرآن الكريم بحر لا ساحل له، وما قيل فيه ما هو إلّا غيض من فيض وقطرة من بحر، فماذا قال ابن سراقة؟ قال:

«إختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلّها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره.

فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة. وقال آخرون: هو البيان والفصاحة وقال آخرون: هو الوصف والنظم.

وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم، وجنس آخر متميّز عن أجناس خطابهم، حتى إنّ من اقتصر على معانيه، وغيّر حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه، وغيّر معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه.

وقال آخرون: هو كون قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يملّ، وإن تكرّرت عليه تلاوته»(٣).

---

(١) الحشر/٢١. (٢) الزّمر/٢٣.
(٣) انظر هذه النصوص في «الإتقان» ٢/١٢١، ١٢٢.

ومع هذه الآراء المتعّددة في وجوه إعجاز القرآن الكريم فإني أميل إلى رأى الزركشى، وهو أن إعجاز القرآن الكريم وقع بجميع ما سبق ذكره من ألوان الإعجاز، قال كما نقل عنه السيوطي في الإتقان ما نصه: وقال الزركشيّ في «البرهان»: أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بِكُلّ واحد على انفراد، فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده، مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مِمّا لَمْ يَسْبِق، فمنها:

الرّوعة التي في قلوب السّامعين وأسماعهم، سواء المُقِرُّ والجاحد،

ومنها: أنه لم يزل، ولا يزال غضاً طريّاً في أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئين.

ومنها: جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادّين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر»(١).

---

(١) الإتقان ٢/١٢٢.

تحدّى القرآن أصحاب الفصاحة والبيان

قبل أن نشير إلى هذا التحّدى قفزت على ذهنى فكرة جاءت عفو الخاطر، فأنعمت النظر فيها، فرأيت أنها فكرة جديرة بالبحث وهي :

هل القرآن الكريم بأسلوبه الرائع تحدّى الشّعر أو النثر أو تحدّى الصناعتين معاً ؟

أمّا تحدّيه الشعر فهذا تحدّ معروف، بل إن دلالة التّحدى إذا انصرفت لا تنصرف إلاّ إلى الشعر، والشعر فحسب في نظر كثير من الباحثين، لأنه القمة في التعبير، والسُّمُو في البيان، والروعة في الموسيقى، والجزالة في اللفظ والفخامة في المعنى. فإذا تحدّى القرآن، فالتحدّي لمن يملك هذه القوة من الثروة الكلاميّة.

وفي رأيي بعد دراسة قمت بها أن القرآن الكريم أيضاً تحدّى النثر بضروبه المختلفة، وفنونه المتعددة، فقهر الخصمين، واستعلى على الصناعتين، وجاوز قمة الشعر إلى قمم أعلى، وترك النثر ضعيف القوى لا يقدر على الحركة أمام سطوة القرآن البيانية، وقدرته البلاغية.

وقد فتحت لنا هذه الفكرة باب الحديث عن النثر في العصر الجاهلىّ.

النثر في العصر الجاهلىّ:

مما لا شك فيه أن العرب في العصر الجاهلي كان لهم نثر رائع، عبّروا به عن أفكارهم، وتجلّى على ألسنة خطبائهم في مواقف الفخر ومواطن الحرب والسّلم، وجرى على ألسنة حكمائهم في أمثال ما زالت حيّة حتى يومنا هذا،

وستظل كذلك، لأنها نتاج تجارب مع الحياة، وحصيلة أحداث انبثقت مع المجتمع.

وقد اختلفت آراء النقّاد والمؤرخين فى نشأة النثر الجاهلى فقد أنكر بعض النقّاد هذا النثر الجاهلىّ، وعلى رأس هؤلاء النقّاد الدكتور طه حسين في كتابه: «في الأدب الجاهلى» حيث ادّعى أنه لا وجود لهذا النثر في الجاهلية قبل الإسلام، وأن الباحث البصير يرى بعد الدِّراسة والبحث أن النثر الجاهلى المرويّ ما هو إلاّ نثر منتحلٌ قَبْل الإسلام، وأَمْرُه وأَمْرُ الشِّعر سِيَّان، فكما انتحل الشعر ونسب إلى الجاهليين كذلك انتحل النثر ونسب إلى الجاهليين، ذلك لأن النثر الذي يهتم به مؤرخ الأدب هو النثر الذي يُعدُّ أدباً، وهو النثر الذي يحمل في طيّاته، وعلى سطحه ألواناً من الجمال الذي يؤثر في النفس كما يحدث هذا التأثير مِنَ الشِّعر. وسار الدكتور طه في كتابه، يشرح وجهة نظره معلّلاً نظريته بأن النثر الأدبي الجاهلي لا وجود له في الحياة الجاهلية، على حين لا ينكر أن هناك نوعاً من النثر يعنى بالأحاديث اليومية، والحاجات العادية المبتذلة، وهذا من دون شك لا يستطيع أحد إنكاره، لأنه يجرى على ألسنة الناس وسيلة تفاهم في شؤون الحياة، وضروبها المختلفة.

يقول ما نصّه: «فليس من شكّ في أنه كان للعرب الجاهليين نثر منذ عصور قديمة جداً، وليس من شك في أنَّهم تخاطبوا بالإشارات والكلمات والجمل المقتضبة، قبل أن يظهر فيهم الشعور الفنّي الذى يحملهم على أن يتغنَّوا ويقرضوا الشعر ولكن هذا النَّوع من النَّثر.... لا يعنى مؤرخ الآداب في قليل ولا كثير... إنما النَّثر الذى يعنى به مؤرخ الآداب هو النَّثر الذى يمكن أن يُعدّ أدباً، والذي يمكن أن يقال: إنه فنّ، فيه مظهر الجمال، وفيه قصدٌ إلى التأثير في النفس من أى ناحية من أنحائها. هو هذا الكلام الذى يعنى به صاحبه عناية خاصة، ويتكلّفه تكلفاً خاصّاً، ويريد أن يأخذك بالنظر فيه، والتعويل عليه. كما يعنى الشاعر بشعره، ويحاول أن يؤثر به في نفسك.....

فإذا فهم النثر على هذا النحو... فليس من شك في أنّه قد كان عند العرب أحدث عهداً من الشعر...» إلى أن يقول:

«ونحن نعرف أن الشعر أقدم عهداً من النثر، وأنه أوَّل مظاهر الفنّ في الكلام، لأنه متصل بالحسّ والشعور، والخيال... فهو ينبعث إذن عن الحياة الإنسانية انبعاثاً يوشك أن يشبه إنبعاث الضوء من الشمس، والعطر عن الزهر.

فأما النثر فهو لغة العقل، ومظهر من مظاهر التفكير، وتأثير الإرادة فيه أعظم من تأثيرها في الشعر أيضاً، فليس غريباً أن يتأخر ظهوره»(١).

واضح إذاً من هذه النصوص أن الشعر في رأى الدكتور طه حسين أسبق وجوداً من النثر الفَنيّ عند العرب في العصر الجاهليّ لأن النثر نتاج العقل، وثمرة الإرادة، وحصيلة التفكير وهذا لا يَتَأتّى إلاّ إذا نضج العقل العربي في العصر الجاهليّ، وهذا أمر بعيد مخالف لطبائع الأمم، وعادات الشعوب.

«ولسنا نعرف أمة قديمة أو حديثة ظهر فيها النثر قبل أن يظهر الشعر أو ظهر فيها النثر مع ظهور الشعر، وإنما الذي نعرفه في تاريخ الآداب عامَّة أن الأمم تأخذ بحَظّها من الشعر قبل كل شيء... وأنت تستطيع أن تلمس الأمر عند اليونان والرومان، والأمم العربيَّة فَتَرى أن هذه الأمم كلها تغنَّت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر بأزمان طوال».

والذي يريد أن يخلص إليه الدكتور طه من هذا الرأي الذي سجلّه في كتابه «فى الأدب الجاهلى» هو أنه يرفض «من غير تردّد كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر قبل الإسلام... أما عرب الشمال فلا بدَّ أن نقف من نثرهم موقفنا من شعرهم» وموقف الدكتور طه من شعر عرب الشمال موقف الإنكار كما هو واضح ومعروف.

ويختم الدكتور طه حسين حديثه عن النثر الجاهلى بقوله:

«فأنت ترى فى هذا الكتاب كلّه أن الأمر في الأدب الجاهلى مخالف كل المخالفة لما اتّفق عليه الأساتذة والمعلمون، فكثرة الشعر الجاهليّ بين مرفوض ومشكوك فيه، وقِلّته في حاجةٍ إلى الدرس، وما يُضاف إلى الجاهلية من نثر لا قيمة له، ولا غناء فيه... وإذا لم يكن بدّ من أن نختم هذا الشعر

(١) في الأدب الجاهلي/ ٣٢٥، ٣٢٦ بتصَرّف.